منهجيّة الأئمّة في مواجهة الإلحاد

الشيخ حسين جعفر

ماجستير في علم الكلام الإسلاميّ- جامعة المصطفى العالميَّة – قم المقدسة

ملخّص

ليس الإلحاد الموجود اليوم في مجتمعاتنا بظاهرة جديدة، بل هي ظاهرة ضاربة في أعماق التّاريخ. فمع ظهور الإسلام على سبيل المثال، واجه هذا الدِّين ظاهرة تُعرف بالزندقة، يمكن جعلها معادلًا للإلحاد المعاصر. وقد تصدّى الأئمّة عليهم السّلام لمواجهة هذه الظاهرة، مظهرين متانة دليلهم وحُسن بيانهم، ومتّبعين في ذلك منهجيّة قرآنيّة واضحة مبنيّة على أساس اعتماد الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن. ومضافًا إلى هذا المنهج العامّ فإنّ التأمّل في كلماتهم عليهم السّلام، يرشدنا إلى جملة من الأساليب التي اعتمدوها في مناقشة الملحدين؛ ومن ضمنها: 1) الهيبة العلميَّة؛ 2) زيادة التوضيح والبيان؛ 3) مراعاة حال المخاطب؛ 4) رهان باسكال؛ 5) أسلوب الصدمة الإيجابيّة؛ 6) نقل المخاطب من الإنكار إلى اللاأدْريّة؛ 7) ترك الخصومة للخصومة؛ 8) الاطّلاع الدقيق والإلمام بكلمات الآخرين ومبانيهم؛ 9) العناية بشكل الخطاب. ونظرًا إلى اشتراك ظاهرة الإلحاد المعاصر والزندقة في جملة من المنطلقات الرئيسة؛ فمن الممكن أنْ نستفيد اليوم في مواجهة الإلحاد من هذه الأساليب؛ بُغية إعلاء راية الحقّ والإسلام.

الكلمات المفتاحية:

الإلحاد المعاصر، زنديق، المنهج العامّ، الأسلوب.

مقدمة

عند الحديث عن الإلحاد وسياقاته التاريخيّة وصولاً إلى الإلحاد المعاصر اليوم، لا بدّ من التمييز بين ظاهرة الإلحاد التي نمت في الغرب وبين تلك التي تبلورت في أحضان العالم الإسلاميّ. إذ غالبًا ما كان يعبرّ الإلحاد في الغرب عن ظاهرة إنكار وجود الإله، في حين ارتبط الإلحاد في العالم الإسلاميّ بمواجهة قضيَّة الدِّين بأبعاده المختلفة، بما يشمل وجود الله وسائر الأسس والمفردات الدِّينيّة وبالأخصّ مسألة النبوَّة. وفي هذا السياق نلاحظ نموّ ظاهرة الزندقة كممثّل وحامل لهذا اللواء، حيث نرى عبد الرحمن بدوي في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام يعقد بحثًا تحت عنوان «بواكير الإلحاد» ويبدؤه بالحديث عن الزندقة (بدوي، عبد الرحمن، من تاريخ الإلحاد في الإسلام: 35). ومن الطبيعيّ أن يقوم علماء الدِّين في كلّ عصر وينهضوا لمواجهة هذه الظواهر والدّفاع عن الدِّين، وليس أحد أحرص في هذا المجال ممّن اصفطاهم الله واختارهم لتأدية رسالته وحفظها؛ هذا الدور الذي قام به أئمّة الهدى على أكمل وجه استكمالاً للدور الرِّسالي الذي بدأه النبيّ الأكرم محمّد (ص)، والذي مثّل ذروة المسار النبويّ. وعلى الرغم من أنّ الإشكالات والشبهات المرتبطة بالإلحاد قد تتفاوت وتختلف من عصر إلى عصر، سواء من ناحية المفردات المستخدمة أو الشبهات المطروحة؛ ولذا سيكون الإلحاد المعاصر الذي نواجهه اليوم مختلفًا عن ذلك الإلحاد الذي واجهه الأئمّة, عليهم السّلام، لكن يبقى أنّه يمكن الاستفادة من المنهجيَّة التي اتّبعها الأئمّة وتحليلها للوقوف على نكات كليّة وإرشادات عامّة ومنهجيّة محدّدة من شأنها أن يُستفاد منها اليوم. من هنا؛ سنعمد في هذا المقال إلى دراسة منهجيّة الأئمّة في مواجهة الإلحاد بُغية استخراج بعض الأساليب التي تُعيننا اليوم في مواجهة الإلحاد المعاصر.

ومعلوم أنّ أدوار الأئمّة عليهم السّلام قد تنوعّت خدمةً للهدف الواحد، وذلك لتنوّع الظروف التي عاصرها كلّ واحد منهم؛ ممّا فرض تحدّيات خاصَّة. وبدورها كانت ظاهرة الإلحاد تتنوّع، فتارة تستهدف بشبهاتها إنكار وجود الله، وأخرى النبوَّة، وأحيانًا إمكانيّة المعرفة وهكذا. لكنّنا في بحثنا ههنا ومراعاةً لما يسعه المقام، اخترنا أن نصبّ البحث على مسألة محدّدة وهي الظاهرة التي أنكرت وجوده, تعالى، هذا من جهة ومن جهة أخرى ستكون وقفتنا مع بعض الروايات التي ذُكرت في الكتب الحديثيّة الرئيسة؛ لكفاية هذا المقدار بحسب الهدف المرجوّ من مقالنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أنّنا عمدنا إلى هيكلة المقال في ضمن مباحث أربعة؛ حيث بدأنا بذكر بعض التعريفيـات، ومن ثمّ انتقلنا إلى الحديث عن المنهج العامّ، يليه عرض بعض الأسـاليب، وبعد ذلك توظيف هذه المنهجيَّة والاستفادة منها اليوم.

■ أوّلًا: تعريفات

ينبغي لنا قبل الشروع بالبحث والتأمّل في المنهجيَّة التي اعتمدها المعصومون, عليهم السّلام, في مواجهة ملحـدي عصرهم، أن نقوم بتعريف بعض المصطلحـات. فبداية لم يكن مصطلح «الإلحـاد» رائجًا في زمان المعصومين عـلى النحو الذي هو عليه اليوم، بـل نجد عند مراجعة المرويّات والنقولات التاريخيّة مصطلحات وتسميات أخرى لعلّ «الزنديق» أبرزها؛ ولذا ينبغي بدايـةً أن نقف وقفة قصيرة مع هذه المصطلحات ونوضح النسـبة بينها وبين الإلحاد المعاصر، وكذلك لا بدّ من إيضاح المقصود من المنهجيَّة التي نحن بصدد البحث عنها.

أ - الإلحاد في اللغة والاصطلاح

لغةً: الإلحاد هو الميل عن الاسـتقامة، ويقال ألحد في ديـن الله أي حاد عنه وعدل إلى غيره (الجوهري، الصحاح في اللغة، 2: 534).

ومن هذا القبيل الاسـتعمالات القرآنيّة كما في قوله تعالى ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخفَـونَ عَلَينَآ**﴾ (فصّلت: 40). وبهذا المعنى أيضًا ما ورد في الروايات، كما جاء في الحديث عـن محمد بن مسـلم عن أبي جعفـر (ع): «قلت جُعلت فداك، يزعم قومٌ مـن أهل العراق أنّه يسـمع بغير الذي يُبصر، ويُبصر بغير الذي يسمع، قال فقال كذبوا وألحدوا وشبّهوا تعالى الله عن ذلك» (الكليني، ، 1: ح1: 108).

ومن ثَمَّ يمكن القول: إنّ الإلحاد في زمن النصّ قد استعمل بالمعنى اللغوي؛ فلم يكن مختصًّا بمن أنكر وجود الله بل يعمّ مطلق الميل عن الدِّين.

اصطلاحًـا: إذا أردنا أن نُقدّم تعريفًا اليوم للإلحاد المعـاصر بعيدًا عن الخوض في التعريفات اللغويّة لهذه المفردة؛ يمكن القول: إنّه عبارة عن الاعتقاد بعدم وجود الله تعالى، فالإلحاد مذهب فلسفيّ يقوم على فكرة عدميّة أساسها إنكار وجود إله خالق(الحسن، الإلحاد المعاصر «الإلحاد

قوّة الإعلام وضعف المضمون»: 28)، أو يُقال بأنّه العدول في مجال الاعتقاد بترك الاعتقاد بوجود إله في هذا الكون (ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج: 27) وفي هذا السياق ينبغي التفريق بين الإلحاد والشرك والكفر واللاأدْريّة واللادينيّة؛ إذ كلّ واحد من هذه المصطلحات يعبرّ عن تيّار أو موقف يمتاز عن الآخر وإن كانت تجتمع في بعض اللوازم أو على المستوى العملي.

ب - الزندقة في اللغة والاصطلاح

لغةً: ليس لفظ الزنديق باللفظ العربيّ، بل هو فارسيّ معرّب على ما ذُكر، يُطلق على القائل ببقاء الدهر. أمّا الزندقة فهي الضّيق، وقد قيل الزنديق منه لأنّه ضيّق على نفسه، وقال أحمد بن يحيى: ليس زنديق من كلام العرب وإنّما تقول العرب زندقة وزندقيّ إذا كان شديد البخل، والزَّندقة هي الضّيق (ابن منظور، لسان العرب، 10: 146)

اصطلاحًا: تشكّلت الزندقة كتيّار فكريٍّ ثقافيٍّ اعتقاديٍّ سياسيٍّ في أواخر القرن الأوَّل، بوصفهم جماعة تخالف أصل التوحيد وسائر الأصول الإسلاميّة، وتسعى إلى تدمير المباني الاعتقادية الإسلاميّة ووصل إلى أوجه في أوائل عصر العباسيين (كندي، زارع، زنديق، دانشنامه جهان اسلام، 21: 698) وهذا اللفظ معرّب أصله فارسيّ على اختلاف في تحديده. ويعتقد البعض أنّ هذا الاصطلاح قد ارتبط بشكل رئيسي بأتباع ماني، والظاهر أنّ أكثر استعمالات هذا المصطلح كانت مرتبطة بذلك (أمين، فجر الإسلام: 120)؛ غاية الأمر أنّه لا يمكن حصر هذا المصطلح في هذا الاستعمال. وفي الحديث عن المانوية فهم أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الّذي ظهر في زمان سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك أخذ دينًا بين المجوسيَّة والنصرانيَّة [والبوذيَّة] وزعم أنّ العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين, أحدهما: نور, والآخر: ظلمة، وأنّهما أزليّان وأنّهما لم يزالا قويين حسّاسين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان وفي الحيز متحاذيان تحاذي الشخص و الظل (الأشعري، المقالات والفرق: 193). هذا وثمّة فوضى في إطلاقات هذا المصطلح واستعمالاته في التاريخ الإسلاميّ، حيث بات أشبه بتهمة معلّبة تستعمل للتعريض بالخصوم، فبعد أن كان يُطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليّين للعالم هما: النور والظلمة، نراه يُطلق أيضًا على الدُّهريّين الذين يرون أنّ العالم محدود بنطاق المادّة؛ ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا**

﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: 24). بل اتّسع فيما بعد وصار يطلق على كلّ ملحد وصاحب بدعة، ويستعمل أيضًا في المنافق الذي يضمر الكفر ويظهر الإسلام (وحيدي؛ جعفري، روش شناسی مواجهه أهل البيت بالإلحاد: 37)، حتّى انتهى به الأمر نهاية المطاف إلى أن يطلق على كلّ من يكون مذهبه مخالفًا لمذهب أهل السنّة؛ فأطلق على بعض المعتزلة وبعض الشِّيعة (بدوي، من تاريخ الإلحاد :37)، والجامع لهذه الاستعمالات تعبيرها عن نحو معارضة للدين والشريعة فكرًا أو عملاً.

وبعد أن اتّضح تعريف كلّ من مفردتي الزندقة والإلحاد، بقي أنْ نلاحظ النسبة ما بينهما.

ج - النسبة ما بين الزندقة والإلحاد

على نحوٍ عامٍّ، يمكن اعتبار كلمة «إلحاد» الموجودة اليوم بديلاً عن «زنديق» الموجودة سابقًا (وحيدي؛ جعفري، روش شناسی مواجهه اهل بيت با الحاد: 39)، وبالتدقيق بما مرّ من تعريف يتّضح أنّ النسبة بينهما نسبة العموم والخصوص من وجه بالبيان التالي: يشترك المصطلحان في صدقهما على إنكار وجود الله أو إنكار موجود ما وراء المادّة، ويفترقان بأنّ الزندقة تمتاز بإطلاقها على المسلمين المبتدعين في الدِّين أو غير المبالين، فيما يمتاز الإلحاد بإطلاقه على التيّار الجديد الذي يتبنّى حصر المعرفة بما يقوم على أساس العلوم التَّجريبيّة. وتجدر الإشارة ههنا إلى أنّ الروايات التي سنستعرضها تكشف من خلال سياقاتها وكلمات المخالفين صدق مصطلح الإلحاد عليهم؛ من جهة وضوح إنكارهم وتشكيكهم في وجود الخالق.

د - المنهجيَّة

إذا رجعنا إلى التاريخ ولاحظنا كيفيَّة تعامل العلماء مع مخالفيهم سنجد أنواعًا وأنماطًا مختلفة من التعاملات، فمثلاً كيفيَّة مواجهة أصحاب الحديث لخصومهم من المتكلّمين إذ كانوا في كثير من الأحيان يتحاشَون الخوض في النقاش، ويعدُّون ترك الجدال وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء من أصول السنّة (ابن حنبل، أصول السنّة: 15) أو يكتفون حين يناقشون بالالتزام بالنصوص كما هي. وكذلك كيفيَّة مواجهة المأمون للقائلين بخلق القرآن، والذي تنوّع ما بين موقف علميّ وآخر عمليّ وصل حدّ السجن والقتل لكلّ من عارضه (ابن كثير، البداية والنهاية،

10: 273)، وأيضًا مواجهة الخلفاء العباسيّين للزنادقة أنفسهم كالحملة العنيفة التي بدأها المهديّ سنة 163، فألقى القبض على كلّ الزنادقة الموجودين في البلاد وأمر بقتل بعضهم (بدوي، من تاريخ الإلحاد: 41). والأئمّة, عليهم السّلام, بما يمثّلون من حالة دينيّة علميّة سياسيّة اجتماعيّة كانت محطًّا للنظر، كانت لهم مقاربتهم في التعامل مع هذه الظواهر وهذه التيارات، ويظهر ذلك بشكل واضح في محاجَّاتهم ونقاشاتهم لهم، ومقصودنا في المنهجيَّة في هذا المقال هو البحث عن كيفيَّة تعاطي الأئمة مع هذه الظواهر على الصعيد العلمي لا العملي، بما يشمل البحث عن المنهج العامّ المتّبع من قبلهم عليهم السّلام بالإضافة إلى الأساليب والطرق التي استعملوها في نقاشاتهم العلميَّة مع هؤلاء.

■ ثانيًا: منهجيّة الأئمّة في مواجهة الإلحاد

عند الحديث عن منهجيّة الأئمّة, عليهم السّلام, في تبليغ الدِّين الذي تمُثِّل مواجهة الإلحاد واحدة من مظاهرها ومصاديقها؛ فإنّنا لن نجدهم يحيدون عن المنطق القرآني، حيث كان القرآن قد وضع قانونًا عامًّا للدعوة إلى الدِّين قائمًا على أسس ثلاثة هي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالأحسن؛ بقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: 125)؛ ذلك أنّ مواجهة الإلحاد والملحدين تُعدّ بدورها مصداقًا للتبليغ الدِّينيّ والدعوة إلى سبيل الله. ونحن فيما يأتي سنذكر مثالًا كيف اعتمد الإمام هذا المنهج العامّ في مواجهة الملحدين، لكنّنا لن نكتفي ببيان هذا المنهج العامّ، بل سنسعى لنذهب أبعد من ذلك بأن نبحث في كلماتهم, عليهم السّلام, عن بعض المفاتيح والأساليب والأدوات التي اعتمدوها, عليهم السّلام, في مواجهة هذه الظاهرة. بناءً عليه، سنقوم أوّلًا باستعراض نموذج يوضح كيف أنّ الإمام,, عليه السّلام قد اتّبع هذا المنهج القرآني، ومن ثمّ ننتقل لاستعراض بعض الأساليب الخاصَّة المستفادة من طريقتهم وسيرتهم, عليهم السّلام.

وقبل البدء ببيان كيف اعتمد الإمام عليه السّلام هذا المنهج العامّ، لابأس بدايةً ببيان كلّ واحدة من هذه الأساليب الثلاثة، ونستعين في ذلك بما ذكره العلّامة الطَّباطبائيّ في تفسير الميزان حيث بيّن أنّ هذه الأمور الثلاثة أي «الحكمة» و«الموعظة الحسنة» و«الجدال بالأحسن» من طرق

التكليـم والمفاوضة، وأن الحكمة قد فُسّرت بإصابة الحقّ بالعلـم والعقل، والموعظة بالتذكير بالخـير فيما يرقّ له القلب، في حـين أنّ الجدال هو المفاوضة على سـبيل المنازعة والمغالبة، فينطبـق ما ذكره, تعالى, من الحكمة والموعظة والجدال بالترتيب على ما اصطلحوا عليه في فنّ الميزان بالبرهان والخطابة والجدل (الطَّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، 12: 372). وإذا رجعنا إلى علم المنطق نفسه نجد أنّهم قد عرّفوا البرهان بأنّه قياس مؤلّف من يقينيّات ينتج يقينيًا بالذّات ضرورةً (المظفر، المنطق: 282)، وأمّا الخطابة فصناعة علميّة بسـببها يمكن إقناع الجمهور في الأمر الذي يتوقّع حصول التصديق به بقـدر الإمكان (المظفر، المنطق: 466)، والجدل صناعة علميّة يُقتدر معها –حسب الإمكان- على إقامة الحجّة من المقدّمات المسلّمة على أيّ مطلوب يـراد، وعلى محافظة أيّ وضع يتّفق، على وجه لا تتوجّه عليه مناقضة (المظفر، المنطق: 408). ولكلّ واحدة من هذه الأسـاليب والصناعـات الثلاث فائدتها الخاصَّـة، فالبرهان لأجل معرفة الحقّ باليقين، والخطابة لأجل تهيئة النفوس الزكيّة وترقيقها وإعدادها لدرك ما هو الحقّ واليقين بوسـيلة حصول الظنّ القـويّ، والجدل لأجل كسر الجحود والإنكار(الشـيرازي، شرح أصول الكافي، 3: 10).

هذا وقد اعتمد الإمام في مناظراته ومواجهته الملحدين على هذه الطرق والأسـاليب الثلاثة؛ فنجده أحيانًا يذكر دليلاً وبرهانًا مُحكمًا, وأحيانًا أخرى يعتمد على الوعظ الحسن الذي من شأنه أن يزيح الغِشاوة عن قلب الضالّ, وأخرى يعتمد ما يُفحمه.

أ - استعمال البرهان

فمن أمثلة استعمال الإمام للبرهان ما ورد في الحديث «قال هشام: فكان من سؤال الزنديق أنْ قال فـما الدليل عليه، فقال أبو عبد اللـه (ع) وجود الأفاعيل دلّت على أنّ صانعًا صنعها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيّد مبنيّ علمت أنّ له بانيًا، وإن لم ترَ الباني ولم تشاهده» (الكليني، الكافي، 1: ح5: 81). حيـث عمد الإمام عليه السّـلام في هذه الرواية إلى إثبـات وجود الصّانع من خلال الاستدلال ببرهان عقليّ؛ مبنيّ على أساس أنّ وجود الأفاعيل يدلّ على أنّ صانعًا قد صنعها، وقد قرّب الملاّ صدرا الدليل بأنّ العالم مصنوع مبنيّ، وكلّ مصنوع مبنيّ يقتضي أن يكون له صانع بانٍ ، فالعـالم له صانع بان، وإذا ثبت أنّ للعالم صانعا ثبت وجوده في نفسـه ضرورة، إذ ثبوت الشيء

على صفة في الواقع لا ينفكّ عن ثبوته في نفسه و إليه الإشارة بقوله: إنّك إذا نظرت إلى بناء مشيّد مبني علمت أنّ له بانيًا وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده (الشيرازي، شرح أصول الكافي، 3: 43).

ب - استعمال الجدال بالأحسن

في حين نراه يعتمد في موارد أخرى على الجدال بالأحسن كما في الحديث: «يا هشام كم حواسّك؟ قال خمس، قال أيّها أصغر؟ قال النّاظر، قال وكم قدْر النّاظر؟ قال مثل العدسة أو أقلّ منها؟ فقال له يا هشام، فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بما ترى، فقال أرى سماءً وأرضًا ودورًا وقصورًا وبراريَ وجبالاً وأنهارًا، فقال له أبو عبد الله (ع) إنّ الذي قدر أن يُدخل الذي تراه في العدسة أو أقلّ منها، قادرٌ أن يُدخل الدنيا كلّها البيضة لا تصغر الدنيا، ولا تكبر البيضة» (الكليني، الكافي، 1: ح4: 79).

فهذا الكلام من الإمام, عليه السّلام, جاء جوابًا على سؤال كان عبد الله الديصانيّ قد طرحه على هشام ابن الحكم حول قدرة الله على أن يُدخل الدنيا كلّها في بيضة فلا تكبر البيضة ولا تصغُر الدنيا، فكان من الإمام أن أرشد هشامًا إلى طريق مفحم يناسب مقام السائل, ومن شأنه أن يحقّق الغرض والمطلوب، وما ذلك إلّا لأنّ المشكلة كانت في أصل السؤال أساسًا. والمبرّر الموضوعيّ للطريقة التي سلكها الإمام, عليه السّلام, تكمن في طبيعة السؤال نفسه؛ فهذا السؤال يعاني في نفسه وداخله من مشكلة معرفيّة؛ إذ يناقض نفسه بنفسه، حيث إنّ المسؤول عنه والمطلوب أمر متعذّر لا لضعف في الفاعل بل لقصور في القابل؛ فإذا كان من خصوصيّات البيضة ألَّا تسع ما سئل عنه؛ كان حينئذ السؤال والطلب سؤالًا عن أمر محال في نفسه. من هنا، نجد كيف أنّ الإمام قد اعتمد على الإفحام معتمدًا على مسلّمات موجودة عند الطرف الآخر؛ بُغية إسكاته, وإلّا فإنّ الجواب البرهاني يكمن في أنّ المسؤول عنه أمر ممتنع في ذاته وعدم إمكان تحقّقه يرجع إلى قصور ونقص في القابل لا في الفاعل. وتجدر الإشارة ههنا إلى أنّ هذه الرواية تتمتّع بخصوصيّة مفادها أنّ الإمام لم يكتف باستعمال هذه الطريقة من المحاجَّة فحسب، بل علّمها لأحد أصحابه؛ ممّا يزيد في إضفاء المشروعيّة على هذه الطريقة فلا تكون مقتصرةً على أن يستعملها الإمام المعصوم فحسب، وهذا ينفعنا في تعميم الاستفادة من هذا الأسلوب حيث يقتضيه المقام.

بل ويعتمد المعصوم على الأساليب الثلاثة معًا في بعض الأحيان؛ ومثال ذلك مناظرة الإمام الصادق (ع) مع الزنديق المصري:

ج - استعمال الأساليب الثلاثة معًا

مـن خلال مراجعة المرويّات والمناظـرات التي دارت ما بين الأئمّة, عليهم السّـلام, وزنادقة عصرهم؛ نجد أنّهم قد اسـتعملوا في بعض الموارد المسالك الثلاثة؛ ومثال ذلك محاجَّة الإمام الصادق, عليه السّـلام, أحـد زنادقة مصر حيث اعتمد على هذه المسـالك الثلاثة متدرّجًا؛ فبدأ بالجـدال أوّلاً, ثـمّ الخطابة, وختـم كلامه بالبرهـان، كلّ ذلك بُغية الهداية والإرشـاد؛ ذلك أنّ غرضهم, عليهم السّـلام, لم يكن مقتصرًا على تعجيز الخصـم وإلزامه، بل غرضهم الأصليّ هو هداية الخلق وإخراجهم من الجهالة والحيرة والظلمة.

والحديث رواه الشـيخ الكلينـي في الكافي في كتـاب التوحيد باب حـدوث العالم وإثبات المحدث، وبيان استعمال الطرق والمسالك الثلاثة على النحو التالي:

1 - الجدال بالأحسن:

جاء في الحديث (الكليني، الكافي: 1: ح1: 72) أنّ زنديقًا كان قد قصد الإمام ليناظره وتقابلا في مكّة؛ وكان اسـم الزنديق «عبد الملك» وكنيته «أبو عبد الله» فكان من الإمام, عليه السّـلام, أن بادره السؤال «ما اسـمك» فأجابه «اسمي عبد الملك» فقال الإمام «فما كنيتك» فأجاب «أبو عبد الله»، فحينئذ قال له الإمام بلسـان ملؤه الإفحام: «فمن هـذا الملك الذي أنت عبده؟ أمن ملوك الأرض أم من ملوك السـماء؟ وأخبرني عن ابنك عبد إله السـماء أم عبد إله الأرض؟ قل ما شـئت تخصم»؛ وبيانه كما جاء في الشرح للمولى صالح المزندراني أنّ ما ختم به الإمام هذا المقطع يعني أنْ أجب أيّها الزنديق فأيّما أجبت تكن مخصومًا محجوجًا بقولك؛ وذلك لأنّه بين احتمالـين: فإمّا أن يقرّ بوجود ملك وإله هو وابنه عبداه، ومعنى ذلك إقراره بما ينافي مذهبه من نفـي المعبود؛ وإمّا أن يقول :إنَّـه ليس هناك ملك وإله، وقوله هذا ينافي مسـلّمة موجودة عنده يقرّ بها الزنديق نفسـه، وهي أنّ هذا التركيب الإضافي يدلّ على وجود إله وملك ويكذّب دعوى إنكارهما بناؤهم على كون اللّغة و العرف مفهومات وحقيقة تركيبيّة والظاهر المتبادر أنّ الواضع لاحظ وجودها حال الوضع فلا ينبغـي للعاقل أن ينكره، ويذكر الملاّ صالح المزندراني أنّ هذا الوجـه من الإقناع الذي يورث الشـكّ فيما ذهب إليه من نفي الإلـه و هذا هو المقصود في هذا المقام لأنّ الحكيم يداوي من به مرض الجهل المركّب أوّلا بما يوجب شـكّه ليرجع من الجهل

المركّب إلى الجهل البسيط و يستعدّ لقبول الحقّ (المازندراني، صالح، شرح الكافي: 3: 7). ومن الواضح أنّ هذا الأسلوب من الإفحام ليس برهانيًّا ولا يفيد يقينًا؛ فلا يمكن التمسّك بهذه التسميات للدلالة على وجود إله، لكنَّ هذا الأسلوب وهذا الإفحام كان بمنزلة تمهيد الطريق للوصول إلى القلب وإلقاء الحكمة فيه في نهاية المطاف.

2 - الموعظة الحسنة:

ويكمل الحديث بعد ذلك بأنّ الإمام, عليه السّلام, قال للزنديق أن يأتيه بعد الفراغ من الطواف، ولمّا أتاه شرع الإمام, عليه السّلام, باعتماد الأسلوب الثاني المبنيّ على أساس الموعظة الحسنة أي الخطابة؛ إذ سأل الزنديق إن كان يعلم أنّ للأرض تحتًا وفوقًا؛ ودارت المحاورة بينهما على النحو التالي: « أتعلم أنّ للأرض تحتًا و فوقًا؟ قال: نعم، قال: فدخلت تحتها؟ قال: لا، قال: فما يدريك ما تحتها: قال: لا أدري إلاّ أنيّ أظنّ أن ليس تحتها شيء، فقال: أبو عبد اللّه, عليه السّلام: فالظّنّ عجز لما لا يستيقن ثمّ قال أبو عبد اللّه, عليه السّلام: أفصعدت السّماء؟ قال: لا، قال: أفتدري ما فيها؟ قال: لا، قال. عجبا لك لم تبلغ المشرق، و لم تبلغ المغرب و لم تنزل الأرض ولم تصعد السّماء ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهن وأنت جاحد بما فيهنّ وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! قال الزّنديق: ما كلّمني بهذا أحد غيرك، فقال أبو عبد اللّه، عليه السّلام: فأنت من ذلك في شكّ فلعلّه هو ولعلّه ليس هو؟ فقال الزّنديق ولعلّ ذلك؛ فقال أبو عبد اللّه, عليه السّلام: أيّها الرّجل! ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم ولا حجّة للجاهل».

نلحظ في هذا المقطع من الحديث كيف خاطب الإمام عليه السلام هذا الزنديق على طِبق مبانيه الحسيَّة، موضِّحًا له كيف أنّنا لو سلّمنا بكون الحسّ طريق المعرفة فإنّك لم تفِ هذا الطريق حقّه, فلم تذهب وترَ وتعاين بالحسّ السماوات والأرض لترى وتستيقن إن كان فيها إلـهٌ أم لا، كما يُبيّن له كيف أنّ الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئًا, وأنّه من القبيح للعاقل أن يجحد وينكر أمرًا لا يعرفه ويجهله. ومن الأمور اللافتة أيضًا في هذا المقطع تعبير الإمام بـ «عجبًا» فإنّ هذا التعبير وهذا التعجّب لا ريب كان له وقع كبير على قلب الزنديق، حيث إنّ استعمال هذه التعبيرات في محلّها من شأنها أن تنزل على قلب الطرف الآخر فتزلزل ما فيه من وهم وجهل، وقد ذكر المولى المازندراني أنّه من باب التوبيخ له. ونلاحظ أيضًا كيف أنّ الإمام قد نقل هذا

الزنديق من حالة الإنكار إلى حالة اللاأدريّة (وحيدي؛ جعفري، روش شناسى مواجهه اهل بيت با الحاد: 53)؛ وهذا يُعدّ تمهيدًا للمرحلة الثالثة التي يكون للعقل والبرهان فيها الدور الأساس؛ فمعلوم أنّ الدليل والبرهان في نفسه لا يكفي للإقناع ما لم يقترن بجملة من العوامل الأخرى؛ من جملتها عدم وجود شبهة في قبال البديهة وكون القلب ممهّدًا لقبول الحق والإذعان لصوت العقل والبرهان.

3 - الحكمة والبرهان:

وبعد أن مهّد الإمام طريق العقل والقلب بأن زلزل الشكّ والوهم الذي يعتري نفس هذا الزنديق، وهيّأه لتلقّي الحقّ شرع باعتماد طريق البرهان واليقين فخاطبه قائلاً: «يا أخا مصر تفهّم عنّي، فإنّا لا نشكّ في الله أبدًا، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان قد اضطرّا ليس لهما مكان إلاّ مكانهما، فإن كانا يقدران أن يذهبا فلمَ يرجعان وإن كانا غير مضطرّيْن فلمَ لا يصير الليل نهارًا والنّهار ليلاً، اضطرّا والله يا أخا مصر إلى دوامهما، والذي اضطرّهما أحكم منهما وأكبر. فقال الزنديق: صدقت، ثمّ قال أبو عبد الله (ع) يا أخا مصر إنّ الذي تذهبون إليه وتظنّون أنّه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم، لمَ لا يردّهم وإن كان يردّهم لمَ لا يذهب بهم؟ القوم مضطرّون يا أخا مصر، لمَ السماء مرفوعة والأرض موضوعة؟ لمَ لا يسقط السماء على الأرض؟ لمَ لا تنحدر الأرض فوق طباقها؟ (...) قال الزنديق أمسكهما الله ربّهما وسيّدهما، قال فآمن الزنديق» (الكليني، الكافي: 1: ح1: 74).

ففي هذا المقطع من الرواية عمد الإمام, عليه السّلام, إلى إثبات وجوده تعالى استنادًا إلى براهين إنّيّة؛ وقد فصّل الملاّ صدرا في شرحه في بيان هذا البرهان؛ ويمكن تلخيصه بأنّ الدهريّين يعتقدون بأزليّة المادّة، وبناءً على رؤيتهم هذه ستكون أشرف الموادّ الكواكب، ومن ثَمَّ إذا ثبت كون الكواكب فقيرة ممكنة مضطرّة، بطل ما ذهبوا إليه من كون الطبيعة مبدأ سائر الموجودات. وقد بيّن الإمام, عليه السّلام, كون الشمس والقمر مفتقرين إلى مدبّر غير مادّيّ؛ من جهتين على ما ذكر الملاّ صدرا في شرحه: إحداهما الحركة والأخرى السكون، ونكتفي هاهنا بعرض جهة منهما؛ حيث ذكر في شرحه لهذا الحديث أنّ حركة الأفلاك هذه إمّا حركة إراديّة أو طبيعيّة أو قسريّة؛ ونظرًا إلى كون حركتها دوريّة امتنع أن تكون طبيعيّة أو قسريّة فيتعيّن كونها إراديّة. فأمّا

امتنـاع كونها طبيعيّة فلأنّ الطبيعـة لا تطلب وتلج جهة ترجع منها، بل تكـون حركتها إمّا ذاهبة أبـدًا من غير إيـاب أو راجعة من غير ذهـاب، والحال أنّ الحركة الدوريّـة خلاف ذلك. وبنفي الطبع ينتفي القسر لأنّ ما لا طبع فيه لا قسر فيه؛ إذ الطبع خلاف القسر، وبهذا يكون قد ثبت أنّ حركتهـا إراديّة. وإذا ثبت ذلك فإنّ كلّ فعل إراديّة لا بـدّ له من داع ومرجِّح، والداعي والمحرّك ليس طبيعة جرميّة بل أمر خارج عن هذه الطبيعة. فثبت وتبيّن أن الشمس والقمر مسخّرات بأمره تعالى ومضطرّات بحكمه (الشيرازي، شرح أصول الكافي: 3: 11-15). واللطيف في هذه الرواية كيف أنّها انتهت في نهاية المطاف إلى أن يؤمن الزنديق؛ وهذا يدلّ على مدى إحكام هذا المنهج القرآنيّ، ومدى إتقان الأئمّة,, عليهم السّلام في اتّباعه وتطبيقه.

وهكذا، فقد قدّمنا من خلال ما مرّ نموذجًا عن اتّباع الإمام, عليه السّلام, في مواجهة الملحدين للمنهج القرآنيّ المتُمثِّل باعتماد الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالأحسن، وبما أنّ هذا المنهـج على أهميّته قد يتّصف بالعموم نوعًا ما، ونظرًا إلى أنّ مناظراتهم ومحاجَّاتهم, عليهم السّـلام, لم تخلوا من نكات وأسـاليب مفيدة، كان مـن المفيد أيضًـا أنْ نتأمّل في كلماتهم وسِـيرَهم بحثًا عن بعض الأساليب والفوائد التي من شـأنها أن تُتمّم المنهجيَّة التي نحن في صدد البحث عنه .

■ ثالثًا: الأساليب الأخرى

أ -الهيبة العلميَّة

مـن الأمور التـي نلاحظها عند مطالعتنا للمحاجَّات والنقاشـات التي قام بهـا الأئمّة, عليهم السّـلام، تلك السـطوة والهيبة العلميَّة التي كانت تظهر في كلمات الإمـام فتلقي بظلالها على السّـامع وتؤثّر في كيفيَّة تلقّيه للكلمات، وهذه السـطوة العلميَّة نجدها في الكثير من نقاشاتهم ومحاجَّاتهم؛ وخير دليل عليها إقرار الزنادقة أنفسهم بذلك.

ومن ذلك إقرار ابن المقفّع له بالعلم وتنبيهه لابن أبي العوجاء بألَّا يختبره لأنّه يخاف أن يُفسد عليه عقائده (الكليني، الكافي، 1: ح1: 75).

وأيضًا ما جاء في الحديث: «فقال له العالم (ع) فما يمنعك من الكلام، قال إجلالاً لك ومهابةً

ما ينطق لساني بين يديك، فإنّي شاهدت العلماء وناظرت المتكلّمين، فما تداخلني هيبةٌ قطّ مثل ما تداخلني من هيبتك» (الكليني، الكافي، 1: ح1: 76).

ب - زيادة التوضيح والبيان

ومن الأسـاليب التي تميّزت بها محاجَّات الأئمّة عليهم السّلام زيادتهم في التوضيح والبيان، فترى مثلاً أنّ بعض الأمور كان يكفي للمطلب الاستشـهاد بمثال وقضيَّة واحدة، غير أنّنا نراهم يكثرون من الشواهد والأمثلة. ومثال على ذلك ما جاء في الحديث: « وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسـك نشوءك ولم تكن، وكبَرَك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسُقمك بعد صحّتك، وصحّتك بعد سُقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحُزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حُزنك، وحُبّك بعد بُغضك، وبُغضك بعد حُبّك، وعزمك بعد أناتك، وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك» (الكليني، الكافي، 1: ح1: 76).

ج - مراعاة حال المخاطب

لمّا كانت الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، فكثيراً ما يقدر الإنسان أن يجد منفذًا أو طريقًا يوصل به الملحد إلى الحقّ من خلال الطرق التي يقبلها الملحد نفسه، من دون أن يُضطرّنا ذلك من الوقوع في محذور إنكار بعض المباني والمسلّمات الحقّة. ومن ذلك ما كان الأئمّة يعمدون إليه في بعض محاجَّاتهم بأن يقوموا بإثبات وجوده تعالى اعتمادًا على طرق وأدلّة يقبل بها الملحد فتفعـه. ومثال ذلـك، ما رُوي من أنّ الإمام في مقام إجابة طلب زنديق سـأل عن حدوث العالم فأجاب بأن دعا ببيضة فوضعها على راحته ثمّ قال: هذا حصن ملموم داخله غرقئ رقيق تطيف به فضّة سائل وذهبة مائعة، ثمّ تنفلق عن مثل الطاوس، أدخلها شيء؟ قال لا، قال فهذا الدّليل على حدوث العالم. وبعد ذلك قال الزديق: أخبرت فأوجزت وقلت فأحسنت، وقد علمت أنّا لا نقبل إلاّ ما أدركناه بأبصارنا أو سمعناه بآذاننا أو لمسناه بأكفّنا أو شممناه بمناخرنا أو ذقناه بأفواهنا... (ابن بابويه، التوحيد: ح1: 292).

غير أنّ الإمام لم يكتف بذلك، بل انتقل خطوةً إلى الأمام بأن قال له: «ذكرت الحواسّ الخمْس، وهي لا تنفع شيئًا بغير دليل، كما لا تُقطَع الظلمة بغير مصباح» (ابن بابويه، التوحيد: ح1: 293). وهذا خير مصداق على مسألة «مراعاة حال المخاطب» فكلمة مراعاة لا تعني أن نسلّم معه بمبانيه الضالّة، بل غاية الأمر نراعي هذه المباني فنأتي بما يناسبه، ومن ثمّ وبعد تحقّق الغرض نغتنم الفرصة لنتمّم المطلب ونصوّب المبنى.

د - الاحتياط للمحتمل أو «رهان باسكال»

اشْتُهِر ما بين الحجج طريقة وبيّنة تُعرف باسم «رهان باسكال» نسبةً إلى بليز باسكال, وهو عالم رياضي وفيزيائي وفيلسوف فرنسي، وصيغة هذا البرهان مبنيّة على أنّ الأمر فيما يرتبط بالإيمان بوجود الله, وهل هو موجود حقًّا أم لا دائر بين احتمالات أربعة:

1. أن نؤمن بوجود ويكون موجودًا واقعًا فننال جنّة وخلودًا؛
2. ألّانؤمن بوجوده ويكون موجودًا واقعًا والجزاء حينئذ الخلود في جهنّم؛
3. أنْ نؤمن ولا يكون موجودًا وحينئذ؛ فلا نُجزى على ذلك وهذا يمكن عدّه خسارة محدودةً؛
4. ألّا نؤمن ولا يكون موجودًا فلا نُعاقب ونكون قد تنعّمنا بالحياة دون قيود؛ وهذا ربح محدود.

وبعد ذلك نقول: إنّ كلًّا من الخسائر أو الأرباح الناتجة من الاحتمالين الثالث والرابع تبقى محدودةً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار محدوديّة الدنيا ومسألة الموت، وبالمقارنة مع الاحتمالين الأوّل والثاني. ومن ثَمَّ عندما نكون أما هكذا فرضيّة فإنّ العقل يحكم بضرورة الاحتياط للمحتمل وتطبيق ذلك على المواجهة ما بين الدِّين والإلحاد حكم العقل بضرورة الالتزام بالدِّين.

وقد ذكر البعض أنّ باسكال كان قد اقتبس هذه الفكرة من آخرين ومن بين من نسب له السَّبْق فيها الغزّالي (يوسفيلن، ، برهان شرط بندى: 360). ولكن أيًّا يكن، فما يهمّنا ههنا هو أنّ الإمام, عليه السّلام, كان قد اعتمد على أسلوب وطريقة تشابه في روحها هذه الفكرة، وهي البناء على حساب الاحتمالات وحُكم العقل بعد ملاحظة المحتملات بأرجحيّة الإيمان بالله, تعالى. ففي الحديث أنّ الإمام عليه السّلام قال لابن أبي العوجاء: «إنْ يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون، يعني أهل الطواف فقد سلموا وعطبتك، وإن يكن الأمر على ما تقولون، وليس على ما تقولون، فقد استويتم وهم» (الكليني، الكافي، 1: ح1: 75). وفي رواية أخرى أيضًا: « دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن (ع) وعنده جماعة فقال أبو الحسن (ع): أيّها الرجل أرأيت إن كان القول قولكم, وليس هو كما تقولون،

ألســنا وإيّاكن شرعًا سواءً؛ لا يضرّنا ما صلّينا وصمنا وزكّينا وأقررنا فسكت الرجل، ثمّ قال أبو الحسن (ع): وإن كان القول قولَنا وهو قولنا، ألستم قد هلكتم ونَجَوْنا» (الكليني، الكافي، 1: ح2: 78).

هـ - أسلوب الصدمة الإيجابيّة

عندما نراجع نقاشــات ومحاجَّات الأئمّة عليهم السّــلام مع الملحدين والزنادقة، نلاحظ في بعض الأحيان صدور تصرّف من الإمام, عليه السّلام, منذ أوّل اللقاء يُشَكِّلُ إرباكًا للملحد؛ ممّا يعيد خلط الأوراق لديه بل قد يُضطرّه إلى الفرار في بعض الأحيان. وهذا الأمر -كما يشهد لذلك سياق الأحداث المنقولة في الروايات- كان يُشَكِّلُ ما يشبه صدمة إيجابيّة تمهّد الأرضيّة للهداية، ومن أمثلة ذلك ما جرى بين الإمام الصادق (ع) وذلك الزنديق المصري، من سؤال الإمام له عن اســمه وكنيته، فأجاب بأنّ اســمه عبد الملك وكنيته أبو عبد الله «فقال له أبو عبد الله (ع): فمن هــذا الملك الذي أنت عبده؟ أمِن ملوك الأرض أم من ملوك الســماء؟ وأخبرني عن ابنك، عبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟ قل ما شئت تُخصم. قال هشام بن الحكم: فقلت للزنديق: أما تردّ عليه، قال فقبّح قولي» (الكليني، الكافي، 1: ح1: 72).

و - نقل المخاطب من الإنكار إلى اللاأدْريّة

قد تأخذ العزّة أحيانًا الإنسان أو يتأثّر بشبهات وفضاء ما فيعمد إلى مغالطة نفسه بأن يصل إلى نتيجــة ما اعتمادًا على غير موصل. ومن ذلك ما نجــده عند الكثيرين ممّن يخلطون ما بين عدم الدليل والدليل على العدم، وهذه مســألة ســيّالة نجدها اليوم وكانــت موجودة كذلك في عصر الأئمّة, عليهم السّلام. وقد عمد الأئمّة في مواجهة هذه المسألة إلى نقل الملحد من حالة الإلحاد إلى حالة اللاأدْريّة، ومعلوم أنّ الحالة الثانية أشــفى حالاً من أكثر من جانب، ســواء على صعيد موقفه بينه وبين الله أو على صعيد فتح الباب أمام الهداية والعودة إلى الحقّ، ومن أمثلة ذلك ما مرّ من سؤال الإمام للزنديق الذي ينكر أنّ للكون خالقًا بسؤاله : هل دخلت تحت الأرض وهل صعدت للســماء لتعرف أنّ لا أحد فيها (الكليني، الكافي، 1: ح1: 73)؛ وبهذا الســؤال نقله من حالة الإنكار إلى حالة الشكّ، بل يمكن القول: إنّه لم ينقله بل أوضح له حقيقة حاله؛ إذ كثيرًا ما يخلط الإنسان بين هاتين الحالين فيكون شاكًّا, ويظنّ أنه منكر لسبب أو لآخر.

ز - ترك الخصومة للخصومة

عندمـا يكون الطـرف المقابل في أيّ نقاش قد وصل به الخصام إلى حدّ العناد فيحسـن في بعض الأحيان تجنّب مناقشـته لعدم الفائدة منها؛ لأنّ من شـأن النقاش أحيانًا أن يزيده عنادًا. ومن هنا نرى كيف أنّ الإمام, عليه السّـلام, قد ترك بعض المخاصمين أحيانًا ولم يدخل في نقاشهم كما خصوصًا حين يكون الإمام قد وضّح وبيّن وأقام الحجّة سابقًا؛ ومثاله ما جاء في الحديث: «قال سيّدي ومولاي، فقال له العالم (ع): ما جاء بك إلى هذا الموضع؟ فقال عادة الجسد وسنّة البلد، ولننظر ما النّاس فيه من الجنون والحلْق ورمي الحجارة، فقال له العالم (ع): أنت بعدُ على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم، فذهب يتكلّم فقال له (ع): لا جدال في الحجّ ونفض رداءه من يده» (الكليني، الكافي، 1: ح2: 78).

ح - الاطّلاع الدقيق على كلمات الآخرين ومبانيهم

يظهـر من خـلال تتبّع مناظرات الأئمّة, عليهم السّـلام, مدى إلمامهـم واطّلاعم الدقيق على كلمات الملحدين ومبانيهم؛ ومن أمثلة ذلك ما مرّ ذكره من معرفة الإمام بالمباني الحسـيَّة التي يستند إليه الزنديق ومحاجَّته على أساس هذه المباني؛ و يدلّ أيضًا على ذلك ما نراه من اختلاف في كلام الإمام وطريقة محاجَّته باختلاف مباني الشـخص الآخر، فعلى سبيل المثال نجد الإمام في إحدى الروايات يحاجُّ دهريًّا؛ ومعلوم أنّ الدُّهريّين ينكرون ما وراء المادّة ويعتقدون أنّ العالم قديم (شـيرين كندى، محمد زارع، دهريه: 439)؛ وعلى هذا الأسـاس جاء نقاش الإمام والذي يعكـس من جهة اطّلاعـه على مباني هذا الدهريّ، ومن جهة أخـرى حكمته ووقوفه على كيفيَّة محاجَّتـه وما هي الأمور التي ينبغي التركيز عليها وقـد مرّ بيان ذلك في ضمن المقال؛ في حين نجده في رواية أخرى يحاجج زنديقًا مانويًّا فيبدأ معه الكلام في مسـألة نفي وجود خالقيْن؛ نظرًا إلى كون مذهبهم يقوم على أساس ذلك وهو مذهبهم، حيث يبادره الإمام قائلاً: «لا يخلو قولك إنّهما اثنان» (الكليني، الكافي، 1: ح4: 80).

ط - العناية بشكل الخطاب

كثيراً ما يكون لبعض الأمور الشكليَّة في المناظرات والمحاورات دور مهمّ وتأثير كبير في إقناع الطرف الآخر، ومن ضمن هذه الأمور الشكليَّة المرتبطة بالطرح مستوى الثقة التي يبديها المتكلّم

وما يمكن أن يذكـره من تنبيه للطرف الآخر بضرورة ترك التعنّت؛ نعم هذا يتطلّب اغتنام الفرصة المناسـبة وإلّا تحوّل ذلك اسفتزازًا للطرف الآخر، وهذا الأمر نسـتفيده من محاوراتهم, عليهم السّـلام, التي لم تخلُ على صعيد الشـكل من إظهار الثقة بالنفس وبالحقّ مضافًا إلى استعمال الوعظ وتنبيه الطرف الآخر في لحظات مناسـبة ضمن المناظـرة والحوار؛ ومن أمثلة ذلك قول الإمام للزنديق: «يا أخا مصر تفهّم عنّي، فإنّا لا نشـكّ في اللـه أبدًا» فهذه الجملة على وجازتها تختـزن الكثير من فنون المناظرة وآدابها ؛ فأوّلاً مخاطبـة الإمام للزنديق ونداؤه بـ «يا أخا مصر» وثانيًـا قوله له «تفهّم عنّي» وبه يوصيه بأن يتفهّم ويترك التعنّت؛ وثالثًا قول الإمام,: عليه السّـلام «إنّا لا نشـكّ» وهذا الإظهار للثقة بالله وبالنفس وأنّه على يقين فيما يقول موجب لزيادة إصغاء السامع (المازندراني، شرح أصول الكافي، 3: 10).

■ رابعًا: الاستفادة من منهج المعصومين (ع) وأساليبهم في مواجهة الإلحاد المعاصر

عـلى الرغم من تطـوّر وتبـدّل المخاطب الملحد اليوم سـواء لناحيـة الظـروف أو البيئة أو الإشـكالات المطروحة، لكنّنا إذا نظرنا في أهـمّ مرتكزات الزندقة في عصر المعصومين, عليهم السّـلام، وأبرز منطلقات ومباني الملحدين اليوم، لوجدنا تشـابهًا نوعًا ما يُسـوّغ لنا أن نستعين بتلك الأسـاليب في مواجهة الإلحاد المعاصر. حيث يمُكن بملاحظة الروايات أن نسـتخلص أهمّ مرتكزات الزندقة في عصر المعصومين، على النحو التالي:

1. الاعتماد على الظنّ والفرضيّات الظنيّة؛
2. النزعة الحسيَّة، ومنها كثرة سؤالهم كيف هو وأين؛
3. عدم الدليل دليل العدم.

وإذا رجعنـا وطالعنـا الإلحاد بثوبه المعاصر، وجدنا أنّه يشـارك ظاهـرة الزندقة في الانطلاق والاعتماد على هذه المرتكزات؛ ولاسيَّما, أنّ الإلحاد اليوم ينبني بنحو كبير على المسائل العلميَّة التـي تعتمد على التجربة والحسّ، وما يرتبط بها من فرضيّـات يقرّ أصحابها بكونها ظنّيّة؛ وبناءً عليه يمكننا استخلاص جملة من التوصيات المستندة إلى الأساليب التي اعتمدها الأئمّة, عليهم السّـلام، ويمكننا في هذا المجال أن نرتّب هذا الأمور في ضمـن مراحل ثلاث ترتبط بمواجهة الملحد:

1. مرحلة ما قبل المواجهة؛
2. مرحلة الشروع بالمواجهة؛
3. مرحلة المواجهة.

ففي المرحلة الأوْلى ينبغي بدايةً قبل مناقشة الملحد أن نتحصّن بالعلم اللازم سواء لناحية العلم بما ينفعنا لإثبات الحقّ الذي بين يدينا، أو العلم الكافي والاطّلاع على أقوال الملحدين ومبانيهم بنحو دقيق، فلا يكون اطّلاعنا في هذا المجال سطحيًّا أو مأخوذًا من مصادر ثانويّة أم من خلال ما يكتبه الموحّدون حول الملحدين بل لا بدّ من السعي مهما أمكن إلى الذهاب إلى مصادرهم وكتبهم بحثًا عن أقوالهم وأفكارهم ومبانيهم؛ ولذا ينبغي لنا أن ندرك مدى أهميّة دراسة الملحدين ونظريّاتهم وفهمها على نحو معمّق في سياق مواجهتهم والردّ عليهم.

وأمّا المرحلة الثانية فهنا لا بدّ من السعي بدايةً إلى فهم المخاطب وتحديد خصائصه؛ فقد نحتاج أحيانًا إلى أن نبدأ المواجهة بتمهيد طريق القلوب والعقول لتقبّل الحقّ، وذلك حيث يكون الطرف الآخر مسكينًا وقع تحت تأثير مغالطة ما، أو من كان ممّن نمت الغشاوة على قلوبهم، فيحسن مثلاً أن نبدأ معه بما ينفع لإفحامه منذ البداية، وذلك يكون بما أشرنا إليه من إظهار العلم أو القيام بصدمة إيجابيّة.

وأمّا المرحلة الثالثة، ففيها ينبغي ألَّا نحيد عن المنهج القرآني العامّ، وأن يكون تركيزنا في نهاية المطاف على الأدلّة والبراهين؛ فلا شكّ أنّ الأسلوبين الآخرين مطلوبان لكنّهما ينفعاننا في موارد خاصَّة لرفع المانع من تقبّل الحقّ أو لإفحام من يحسن إفحامه، لكن يبقى أنّه لا غنى عن الدليل والبرهان الموصل إلى اليقين، ولذا ينبغي علينا أن نهتمّ بالعلوم والصناعات التي تساعدنا على تحسين قدراتنا الاستدلاليّة؛ كعلمي المنطق والفلسفة وغيرها من العلوم العقليّة، بالإضافة إلى الاستعانة بالأساليب التي اعتمدها المعصوم عليه السّلام؛ كمسألة التنبيه على أهميّة المحتمل وخطورته.

خاتمة البحث

سعينا في هذا المقال إلى تسليط الضوء على جانب من منهجيّة الأئمّة, عليهم السّلام, فيما يرتبط بمواجهة ظاهرة الإلحاد أو الزندقة، مقتصرين في ذلك على النظر من زاوية معيّنة تمثَّلت في اختيار أهمّ الروايات المتعلّقة بمواجهتهم لظاهرة «إنكار وجود الخالق». والهدف من وراء هذا

المقال يكمن في محاولة ربط الجسور ما بين التجربة المعصومة والتحدّي المعاصر، والحثّ على توظيف منهجيّتهم, عليهم السّلام, في مواجهة الإلحاد المعاصر، ولاسيّما أنّ التطوُّر العلمي وتبدّل المفاهيم والثقافات قد توهم بأنّ ما تتطلّبه هذه الظاهرة اليوم منفصل تمامًا عن ما هو موجود في الروايات، والحال أنّ مرويّاتهم عليهم السّلام تختزن أساليب قيّمة ومفيدة تنفع العالم في مواجهة التحدّيات المعاصرة بألوانها المختلفة. وقد خلصنا إلى جملة من الأساليب التي يمكن الاستعانة بها وتوظيفها، ورأينا كيف أنّ كلام الأئمّة عليهم السّلام لم يقف عند حدود البراهين والأدلّة، بل كانوا يستعملون الخطابة والجدل أيضًا؛ كلّ ذلك بحسب ما يقتضيه المقام، بالإضافة إلى جملة من الأساليب ذات الآثار النفسيَّة، وفي هذا رسالة واضحة مُفادها أنّ الإلحاد ليس مجرَّد معضلة علميّة فحسب، بل في كثير من الأحيان تكون مسألة مركّبة يختبئ خلفها جملة من الأمور المتشابكة سواء النفسيَّة منها أو غيرها، وهذا يتطلّب تمهيد الطريق أمام البرهان والدليل قبل استعماله. وعلى ضوء ما خلصنا إليه يمكن تقديم التوصيات التالية:

أ - السعي إلى تكثيف البحث في الروايات التي من شأنها عن تكشف عن سائر جوانب منهجيّة الأئمّة, عليهم السّلام, في هذا المجال، فبعد أن كان هذا المقال بمنزلة مقدّمة من المفيد أن يُستكمل العمل من خلال تعميق البحث وتنويعه، فنبحث في منهجيّتهم في مواجهة منكري النبوَّة على سبيل المثال، أو دراسة للمنهجيّة في دائرة معيّنة تأخذ بعين الاعتبار البيئة الثقافيّة المرتبطة بالروايات محلّ البحث.

ب - الاهتمام بتحليل الجوانب النفسيَّة التي اعتنى بها الأئمّة عليهم السّلام في مواجهة الزنادقة، بُغية الوصول إلى نكات عامّة تنفع في هذا المجال.

ج - بعض الأساليب التي ذُكرت تستحقّ في نفسها أن يُكتب فيها مقال مستقل.

د - تسليط الضوء على قيمة أسلوبيْ الخطابة والجدل بحسب الرؤية الدِّينيّة، بالإضافة إلى حدود استعمال هذين الأسلوبين وضوابطه.

قائمة المصادر

1 - بدوي، عبد الرحمن، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1993 م.

2 - الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1404 هـ.

3 - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط4، 1407 هـ.

4 - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1410 هـ.

5 - أمين، أحمد، فجر الاسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط2، 2012 م.

6 - الأشعري، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، مركز انتشارات علمي وفرفنگی، تهران، ط2، 1360 ش.

7 - الحسن، طلال، الإلحاد المعاصر «الإلحاد قوّة الإعلام وضعف المضمون (نظرة قرآنية)»، جامعة آل البيت العالميَّة، ط1، 1443 هـ.

8 - المازندراني، محمد صالح، شرح الكافي (الأصول والروضة)، المكتبة الإسلاميّة، تهران، ط1، 1424 هـ.

9 - الطَّباطبائيّ، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1390 ه.

10 - المظفر، محمد رضا، المنطق، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قم، ط2، 1439 ه.

11 - الشيرازي، محمد بن إبراهيم، شرح أصول الكافي، مؤسسة الأبحاث الثقافية، تهران، ط1، 1425 ه.

12 - ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد، جماعة المدرسين، قم، ط1، 1398 ه.

13 - يوسفيان، حسن، برهان شرط بندى، نشريه نقد ونظر، بهار وتابستان 1382، العدد 29 و30.

14 - ابن حنبل، أحمد، أصول السنّة، دار المنار، السعوديّة، ط1، 1411 هـ.

15 - ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، دار الفكر، لاط، 1407 هـ.

16 - كندي، شيرين؛ زارع، محمد، دهريه، دانشنامه جهان اسلام، ج18.

17 - وحيدي، محمد؛ جعفري، محمد، منهجيّة مواجهة أهل البيت (ع) مع الإلحاد، مطالعات شبهه پژوهی، صيف 1444 هـ.

18 - كندي، شيرين؛ زارع، محمد، زنديق، دانشنامه جهان إسلام، جلد 21.